جورج سعد

الانسان ومفهوم الزمنية في شعر ميشال سليمان

اصدقني لو انك قاضيت الامس الراحل على حساب الزمن الاتي ، لانفرجت امامك صبوات الحياة ، وكأنها رسوم الاحلام تندى الى الشعر ، فتصل به الى معطيات الوجود ، لتكتب عبر رمال الصحراء النائمة ، احرف الغد على حساب المرحلة الازلية ، وهي شكل من اشكال الوجود ، في صدر هذا الشاعر الصابر على بلوى نفسه، صبره على هموم اهله ورفاق دربه الطويل .

تطواف الحلم القادم وشعر الدكتور ميشال سليمان ، اثنان لا يغادران الشوق الندي ، ولا يفترقان حتى في ساعات الخلاص من الابد الواقف والمسمر في شرفات الصدر البلوري . ويا لها من عيون تطل عبر مسالك الغيب تقطر في نظراتها وخز الشوك والسكين ، الا انها تداوي الجراح بعطف الغضب الثوري ، وفي حمى انتظار العاصفة المجمعة من « تعلات العيون .. ولظى الحقد الهتون » (١)

ان انهدام الجدار الصلب ، وحتى يقوم البنيان الشامخ ، ذلك في مقومات الكلمة وهي تدخل الى حواضر البشر والمجتمعات ، تفتح امامهم منحدرات المستحيل ، تعانقهم وجها لوجه ، وكأن الاخوّة لا تكون الا بعد غربة الايام والزمن ، يومها فقط يقف الشاعر على عوارض الدهر ، وكأنه الجزء الكلي ، يحصد ربيع الدم والفرح ، يحصد ورق الخريف والشقاء ، يضعها جميعها في كيسه الظافر ، ليقطع عبر اودية الخوف ، الا انه بشجاعة الشاعر المتحدي ، يغني لاحلامه ، وكأنه يعرف هذه الدرب الطويلة . لقد سافر عليها منذ نعومة اظفاره ـ لعل ذلك ، ومن يدري ـ انها معطيات الوجود . لكنه الزمن الاتي على صهوات الغضب .

ويلذ للمتحدث ان يكون لموضوع حديثه بداية . ويكون الفرح عندما يقرأ المتحدث على حساب بدايته نهاية الكلمة ، وليس نهايةالموضوع. وبين فهم الكلمة على انها مثل يعطيه الشاعر في غنائه رونقا وفتنة ،وبين اشكال الاخذ بالاكف الصامتة عن التعبير ، فرق لا يساويه لون من المقارنة والمثل ، لانه من حيث نبدأ رحلة الكلمة ، تكونللشاعر وقفة التحدي . اذ كيف يصح القول انه شعر بلا افتراض زمني ، لينطوي على تقدير الانسان ، وهو يرحل من طفولة طويلة طافحة باحلام النسيان ، الى شباب مندفع ترتمي اليه الفرضيات لتكوّن مسؤولية في القيم والبقاء .

انها مشكلة الشاعر في كل زمان ، سواء كان واحدا منالناس، ام تعدى ذلك في قطع الحدود التي يفهمها الناس . ذلك في مفهوم الاستمرار . يبقى شعر الحياة للحياة . وشعر الوطن للوطن .وشعر السياسة للسياسة . اما شعر الانسان ، فيبقى للانسان ، لا حدود لوجوده في قلب الازل المتحول ، كأن كل حد في مداه يشكل مرحلة من تطور الانسان والوجود .

كيف نقاتل الزمن ، واذا نقاتل الزمن ؟

ذلك هو جانب كبير من الشاعر ميشال سليمان في سائر ابداعاته الشعرية يصارع الزمن . وهل يصح فينا ، (في الشعر) ، الا ان نكون مصارعين في امامية الحياة . لانه من الصعوبة في موضع ان يكون للشجاعة مكان في وسط الجموع المحتشدة من اجل الوقوف فقط .. لقد كان ذلك قبل ان يأتي الشاعر ، واي شاعر ؟ انه الانسان الذي يتحدى امامية الخوف ، ليلقي على الماضي ظلا من المعرفة والذكرى . على ان الاثنين ، من الشعر ، هما قوامه المأسوي، وعلى الشاعر ان يعيد النظر فيهما . والحق ان الشاعر ميشال سليمان قد اعاد النظر بمأسوية الشعر العربي اليائسة ، مستخرجا من اعماق الهامه اغنى الدوافع والافكار ، والصور ،والرؤى القيمة التوافق بين الغرابة والانسجام ، بحيث لا يأتي شك بأن الابداع عند الشاعر ، والرؤية الجمالية ، تتشامخ وتبث في الان نفسه حقائق العصر وحقائق التاريخ على السواء . وليست شكلا من النسيان ، وهل ينسى الشاعر ؟. في حدود المعرفة لا يكون وقوف النسيان ، وفي اقتحام التجربة على انها رائدة الشاعر ، لا يجوز التحدي المنفرد . غير ان امتحان الوجود يقف متحديا جذريات الشاعر والشعر ، وليكن ذلك الفارس المقتحم ، جواد يأكل الدرب حينا ويضيع في فلوات الفراغ . مضى الجواد ولكن الفارس باق يصارع الزمن ، لا من اجل البكاء على اطلال الهزائم ، ونثر زهور الرثاء (على قيادات في الامة ضللت الجيل وندت به عن جادات الصراع الفعلي)، بل على الحياة التي يصرخ عليها من قلب الغضب ، وليس من قلب الخوف كما يفهم الاخرون .. لان كأس المرارة صعب المذاق ، وطعم الحجارة اليم ، وجراح الدهر تعلم الشاعر حق الصراع ، وواجب الوقفة المتحدية . وليس في تعبير الشعراء الاخرين الا وقفة الغربة . الا انها في طريق الشاعر ، جعلته مخلوقا عجيبا ، ورسخت فياعماقه الالم الصامت . فهو وحده هذا الالم ، يصنع من كبريائه ، كبرياء الشاعر ، خلودا لا يزول ، يجسد فوق رخام القلب المنتظر على مفارق الاتي . انه الم الارتقاء ، تبارك اسمه وحده ، لا يزول ولا يتغير . يعطي الشاعر قدر الحياة ، ومسؤولية الكلمة البقاء . فهل سويت كلامي بمستوى رحلة ميشال سليمان الشعرية الغنية والطويلة؟

عندما نقرأ قصائد من « اليك عنا ايها الليل » ،« وفجر تموز »، « ومقاطع من رثاء الخيول الهرمة » ، و« النار والاقدام الجائعة » وغيرها ... يكون لنا في تقدير العمل الشعري اكثر من راي في اليقين والوضوح . ولكن الراي الذي لا انتقاص في تعبيره ،هو ان هذا الشعر يحمل في ركيناته الشعر الحديث تفتح العصب الغضبي، ويجعله ابدا على حدود التحفز ، ويدفع به الى مستويات القول : ان للحياة قصة يرويها الناس اجدادا على مسامع احفاد . اما عند الشاعر بالذات فلا يكون للحياة مكان قبل ان يكون الانسان هو الحياة ، التي تبني الواقع على تصميم من توق الناس، وتبني المدينة ، تشيد لنا بسواعد قوية اسمها الصلابة في الاصالة والوجود . ويومها فقط تنجلي امام هذا البناء اخاديد الرصد في كرم النفس الشاعرية ، وهي تذبح ذاتها فوق وردة بيضاء ، اسمها الحب في انقى مفاهيمه المنطبقة على الضرورة التاريخية ، تنطلق بقدرة عجيبة ضد « وحل العصر » ، وضد الخصومات الجانبية التي ترمي الى تكريس مفهوم التغرب الذي يسجن الجوهر الانساني ، ويكبح في الانسان خلة البناء والحلم .

وتغدو تلك الاوراق البيضاء ، حمراء الاريج طيبة النفح . انها مدينة الشاعر ، وطنه ، امته . انها المدينة التي استفاقت :

« لترى اوصالها في جوفها
تجدل من امعائها دورا شواهق
وتسل الدم م الاصداغ ، والاضلاع ، والارجل
تبليها
تغذي القبضات الناعمة » (٢)

وهي الى هذا كله :

« وهي حبلى باجنه
جمعت في رحم الرعب اعنه
لخيول الصائدين ... » (٣)

تلك حالة المدينة التي يسكنها الشاعر ، يعبر شوارعها وضواحيها على صهوة جواده . يتباهى بالوردة البيضاء . ويوم سقط الجواد الجامع ، صحا الفارس ، وراح في غيبوبة التامل . فكانت مجامع الحزن وكانت الغربة من جديد . اجل ! غربة الفارس ، وهو يصلي في ربوات الانتصار ، على حساب الماضي المتداعي . يهبط ويهبط ، ليكون للقاع شرف الوقوف الى جانب القمة . هذا في معطيات « العربة المحطمة فوق دروب الامل السالف . وهي لعمري التصوير البارع للاطر السياسية والاجتماعية التي حملت جيلين او ثلاثة من حياتنا العربية في متاهات الجهل حينا ، والتجهيل حينا اخر ، وما برحت تنتقل من كارثة الى كوارث . والشعب العظيم في الخفي من قدرته ، ينتظر وينتظر حتى ليكاد يمل الانتظار .

اما في التامل الاتي ، فليس للقاع شرف الوقوف على ربوات الذكرى .

وهذا ما يفيد قوله :

أتنّا لنسمعها خطى الايام في الخارج
تحصي وقعها الخباب اقدام صلاب عارية
فاسمعيها يا مهازيل المراكيب الخصية
الهاوية

واندبيه موئل الصمت ، وخلينا نبارح
متحف الشمع نسابق
موكب الحلم سراعا
في قطار من ضياء مرهف الوقع صليب (٤)

في اصطفاء الغيب ، ان نقول : وهل كان الشاعر يعرف مدى ارتياحه لنفسه ، وهو يمتطي اجنحة الريح ، يكوكبها فولاذا . واذا عبر تطواف الميادين يجدد في نفسه عزيمة البطل ، وفي روحه عنفوان النسور ، ابدا يصقلها على سندان الازل ، ليكون للصمود وقفة الزمن في حركته الصاعدة ، وذلك لان « متحف الشمع » قد اعطانا ما كفانا من وجوه « حالة بالامل » . وانه امل النسيان الذي فقده الشاعر لانه امسك في عناق الاتي على صلابة التحدي والحب ، والتمرد ، وعلى هزيم الرياح التي تعصف من كل صوب :

وتسللت عبر الشقوق ذوائب حمر
ومدت لسنها ريح عصوف
فتململت في عز هجعتها الوثائق
وتصايحت فيها الحروف
وتداعت الالواح
وانشقت شجوف الصمت
وانفكت عن الناقوس ارصاد
فصاح ... » (٥)

اجل ؟ امل النسيان الهارب ، بمقابل تحديات العصر ، لموقف الشاعر الذي يابى الا ان يفجر الواقع بغية تبديله ، واداته المثلى هي الشعر . لا الشعر الانعزالي الذي اعمته الفردية . انه شعر الانسان المزروع في حقول الايام ، المفروس على جوانب النفس الخلاقة، التي تمضي مع الارتقاء ، وتتعامل مع معضلات الزمن ، لتكشف غوامضها وتحولها لمصلحة الانسان . وللشاعر ان يكون واحدا من الذين يرفعون شوامخ القباب . والكلمة وحدها تعمر صيف الازل . وتساعد في الولادات الجديدة . الناس يولدون في كل زمان ، وكل مكان . يولدون بشكل عفوي . يبنون ثم يموتون . لكن مهمة الشعر هي ان تكشف لهم سقط ما يبنون ، بل ان تساعدهم في المجيء الى العالم اصحاء وقادرين ، اشداء واقوياء ، يبايعون الموت من اجل الحياة . اليس لمثل هذا يقول الشاعر :

« شجيرات الالم ازهرت في حديقة قلبي
فخفت اليها الفراشات الجائعة
حطت وارتحلت
مثقلة بالرحيق
اما فراشة قلبي
فقد اضناها البحث عن زهرة من نار » (٦)

زهرة من نار ؟ لم يفقد الشاعر طاقة تحديه ، بل اعادها خلاقة في بداية الصراع ، وهو يرتمي فوق احضان الشوق الغاضب لكنه يقف ابدا فوق الرصاد ، يعصر من عناقيد الامل خمرة البقاء . وهذا ما يجعل الشاعر ميشال سليمان ، في الزخم الحضاري ، يحدد موقفه من الزمن ، ومن التاريخ ،من الامس الغابر ، والحاضر ، والغد الذي يمضي اليه بخطوات متزنة على وقع ابداع جمالي متفرد بخصائص ، فيها انه يثير ، ويهدهد ، ويحمل على الدوار حينا ، لكنه في كل الحالات لا يحمل على القعود او الرضوخ للامر الواقع . وهذا ما يحمل على اليقين بان الشاعر يسعى في تعمير جدارية الاتي ، ويعطي انسانه معقول الحقيقة ، فيطبع في عينيه اشراق الضوء الذي لا ينتهي عند حدود الخوف .

ثم اليس لابعد من ذلك ينشد ، وهو يرى ما تستبطن احشاء الحياة في مخاضها العسير :

وترهلت عمياء في جوف المحطات
قناديل الدموع،
ومراكب الاسفار

ماتت في مطارحها عصفيات القلوع
ومجاذف الموج الشقي
الزمعات هوى يسل المرو من شط الهجوع .
حنثت بما وعدت
يحرقها الحنين
ولا رجوع ...
تعلو ، كما الفت
تهدهدها نهود الريح
تلقاها النثوء الضلوع
جذلى الخضوع ..(٧)

من هنا اضحت حياة الشاعر بقاء متحدّيا ، وبطولة نغمةالبراءة في ان لا تكون شمس النضال رهينة بظل الوهم والحيرة والتمزق ، وانما تتحول كتلة لا تتعب من سباق الميادين ، وتجدد اصالتها في رياح الزمن المتقلبة بين الحالي والاتي . ثم يكون الانشداد بزمنية الاتي حدا لا يعرف الاستقرار ، بحيث لا تستطيع ان تقطع شعرة واحدة من حبائل ايمان الشاعر بالاني ، ولو كان ذلك في ظن الاخرين ضربا من المستحيل . فقد اقسم ان يظل واقفا كالاشجار تتعرى حينا وتكتسي حينا اخر ، لكنها تبقى صامدة ، وان كانت مركبات الامس ، واطره قد رحلت في مهب العاصفة مع ركابهاالمنافقين. ولسوف يبقى صادقا مع نفسه ، ومع الحرية . « انه « سيزيف »» وهو يصارع المستحيل من اجل ان يبقى للانسان شرف الصمود والتحدي . ولسوف يظل مقتحما الافاق العصية ، محطما قيوده العفنة ، مرتحلا الى العالم الذي ابصره في الروح والقلب ، وهذه حقا شجاعة الثورة ، وقوة الاعتماد على النفس العظيمة ، النفس العامة ، نفس الشعب التي اعطت الشاعر موهبة الشعر والخلق ، وكرامة الانسان .

ان زهرة الشاعر قطف النار ، وملقاه ابدا حلبات الصراع التي لا تفتر ، في زمن الحقيقة الواقعية ، والحقيقة الشعرية على السواء، وفي مواجهة الشاعر الذي لا يفاوض على الخلاص ، من خلالالمراهنة على عفوية الزمن ، بل من خلال ان يكون الانسان هو سيد مصيره وسيد افعاله ، وان يكون شعره ، وهو اداته المثلى والوحيدة ، الدافع الحامل في طبيعته معنى القوة العارفة الى اين تتجه ، وسيان بعد ، ان يكون شعره عذابات الزمن ، ما دام موقوفا على العطاء المخصاب ، المتصل بكل اسباب الوعي الفني والحضاري .

ولا ريب في ان عذابات الزمن هنا ، وهي لولبية عوالمشعرية، تلف سائر اعمال ميشال سليمان الشعرية ، وتحمل على التأمل الكبير، وتدفع الى الذهول ، وتجعل من صاحبها شاعر تحولات الانسان وغضبه البصير ، وتوجهه نحو عوالم جديدة ، خلال كل المعارك المشرفة في النضال من اجل الانسان والحرية . وذلك في اطار من القيمالتعبيرية عن الاحساس بمصادر التناقض المأسوي ، بين احساس الشاعر ،وبين عاطفة الابداع ، والحزن العميق من حدودية الوجود البشري .

ان التآكل الذي يخضع له الزمن ، الكائن ، الشاعر ، هو مناسبة مشؤومة ، لكنها اصبحت متجاوزة بالشعور العميق والمزلزل، الا انه اصيل يتطلع الى المساس بكل شيء ، وارواء نهم لا يرتوي من معرفة اللانهاية .

وهذا ما يحمل على الظن ان ميشال سليمان ، وطرفة بنالعبد، قدران . طرفة وهو يختصر الزمن قبل ان ياتي ، يسف من رمال الصحراء على قبره المتواضع . انها وقفة الشاعر القتيل من اجل ان يبقى . وميشال سليمان في قدر الوجود ، عبر الرؤى والغضب الزمني ، لكنه ابدا من الشعر وردة الفارس الذي مر على دروبمن احب ، فاخذ من الحب وردة بيضاء ، فيها شذا الانسان ، الا انها قبل كل شيء تبقى خلاصا للوفاء للقيم الانسانية ، وللشعر .. ومن يدري ، لعله يبحث في فجاج الارض عن قبر طرفة بن العبد ـ تلك رحلة الشاعر بين هضاب الزمن وسهوب التاريخ ، ليستنطقالحياة لعلها تعطيه جوابا . ومن يدري ايضا .. قد يكون لهذا الشاعر امل مطلق في ارض الوجود ، وهذا هو اليقين ، وباسمه يبقى لشعره رونق القلب المتمرد ، وحزن التطلعات الانسانية الكبرى الى ما ينبغي ان يكون .

بيروت

هوامش :

(١) ـ قصيدة العاصفة ـ فجر تموز ـ
(٢) ـ النار والاقدام الجائعة ـ فصل : « المدينة الضائعة في ذاتها » .
(٣) ـ النار والاقدام الجائعة ـ
(٤) ـ رثاء الخيول الهرمة .
(٥) ـ رثاء الخيول الهرمة ـ فصل : على اكف العمر
(٦) ـ رثاء الخيول الهرمة .
(٧) ـ النار والاقدام الجائعة ، فصل : القناديلورحلة الفقر .

دراســـات ادبيــة

من منشورات دار الاداب

مذكرات طه حسين	د . طه حسين	بين آدم وحواء	د . زكي مبارك
من ادبنا المعاصر	« «	التكسب بالشعر	د . جلال الخياط
تجديد رسالة الغفران	خليل الهنداوي	شخصيات من ادب المقاومة	سامي خشبة
الادب المسؤول	رئيف خوري	سيمون دو بفوار اومشروعالحياة	فرانسيسجانسون
اصوات غاضبة فيالادب والنقد	رجاء النقاش	كامو والتمرد	لدولوبيه
وتبقى الكلمة	صلاح عبدالصبور	بابا همنغواي	ا . ا . هوتشنر